الأدب المغربيّ القديم في كتب التراجم

د. محمّد محيي الدين
جامعة تلمسان

حظي الأدب المغربيّ منذ مطلع تاريخه بعناية توازي ذلك الاهتمام الذي ناله الأدب في المشرق والأندلس. ومن مظاهر تلك العناية جمعه وتدوينه. ويوجد، فضلا عن الدواوين الشعريّة والمجموعات النثريّة، كثير من المصادر الأخرى لذلك الأدب. منها: كتب التراجم، وكتب التاريخ، وكتب الرحلة، ومعاجم البلدان، والبرامج، والفهارس، وغيرها.

وتُعَدّ كتب التراجم من أهمّ تلك المصادر، وذلك بما حوته من نصوص وأخبار أدبيّة كثيرة. وتزداد أهمّيّتها بما حفظته من نصوص لا يجدها الباحث في غيرها، ثمّ بما تضمّنته من جيّد الأدب، إذ هو،في الغالب، مختارات من إبداع الأدباء.

ويجد الباحث في الأدب المغربيّ القديم مجموعة وافرة من هذه الكتب. وهي طائفتان. أولاهما : ترجمت الأدباء وسجّلت نماذج من إنتاجهم الأدبيّ، والأخرى : ترجمت صنفا أو أكثر من الأعلام من بينهم أدباء أو ذوو مشاركة في الأدب، وسجّلت بعض ما نظموا من شعر أو كتبوا من نثر. وحسبنا أن نعرّف بنماذج من كلّ طائفة ونشير إلى قيمة كلّ منها.

فمن الطائفة الأولى ما يلي:

. " أنموذج الزمان، في شعراء القيروان". وهو للحسن بن رشيق، الناقد المشهور. ترجم فيه مائة شاعر من شعراء إفريقيّة في عهده، وسجّل مختارات كثيرة من شعرهم. وتتمثّل أهمّيّة هذا الكتاب فيما حواه من تراجم ونصوص لشعراء لا نكاد نجد لهم أثرا في المصادر الأخرى، كما تتمثّل تلك الأهمّيّة في مساعدته

الباحث على جلاء ملامح الحركة الشعريّة في إفريقيّة في القرنين الرابع والخامس. ولكنّ هذا الكتاب ما يزال في حكم الضائع من تراث المغرب الثقافيّ. على أنّنا مدينون لبعض الباحثين التونسيّين بجمع ما نُقل من كتاب "الأنموذج" في الكتب الأخرى، وتحقيقه ونشره.

. " خريدة القصر، وجريدة العصر". وهو للعماد الاصفهانيّ. ترجم فيه شعراء الأقطار العربيّة الذين عاشوا في القرنين الخامس والسادس.ويهمّنا، من هذا الكتاب، قسم شعراء المغرب والأندلس الذي عرّف المؤلّف في جزئه الأوّل بعدد من شعراء المغرب، وأورد كثيرا من نصوصهم. ومن محتويات هذا الجزْ ما يلي: باب في ذكر محاسن جماعة من المغرب الأدنى والقيروان وإفريقيّة، وباب في ذكر محاسن جماعة من أهل المغرب الأقصى، وباب في ذكر جماعة من أهل المغرب الأوسط الذي كان لبني حمّاد، وباب في ذكر جماعة وافدين إلى مصر وغيرها من المغرب.

ويُعَدّ كتاب"الخريدة" مصدرا بالغ الأهميّة لمن يبحث في الحركة الأدبيّة في المغرب في القرنين المذكورين. وقد نوّه بقيمته عدد من الباحثين. قال الأستاذ حسن حسني عبد الوهّاب: "من حسن الطالع أن يهتمّ بعض كبار المشارقة فيحفظ من أدب تلك الحلبة ، وأشعار تلك الكوكبة، ما تيسّر له أن يتلقّاه من أفواه النازحين الإفريقيّين إلى الديار الشرقيّة، أو ما ينقله من مجاميعهم الأدبيّة، فيسدي لنا يد معروف يجب تقديرها وإكبارها، لما جمعه من متناثر الأقوال ، لشعراء مجيدين غمرهم النسيان، وانسدلت عليهم ستور الغفلة والإ همال" 1 . ويقول محقّقو هذا الكتاب: " نجد في الخريدة نصوصا شعريّة أو نثريّة لم تكن معروفة من قبل، لكثير من الأدباء الأفارقة... نقلها العماد عن مصادر فقدت"2 .

. " كتاب الحلّة السيراء، في شعر الأمراء". وهو لأبي عبد الله محمد بن الأبّار البلنسيّ. ترجم فيه عددا من الشخصيّات السياسيّة في المغرب والأندلس، وسجّل كثيرا من نصوصها الشعريّة والنثريّة. وقد حرص على أن "يستوفي [كتابه] المتأدّبين، حتى من المتوثّبين". ومع أنّ العنوان يشير إلى أنّ الكتاب مقصور على

شعر الأمراء، فإنّنا نجد كثيرا من شعر غيرهم، كما أنّ المؤلّف لم يقفه على النصوص الشعريّة، وإنّما سجّل فيه كثيرا من الرسائل وغيرها.

ويُعَدّ كتاب "الحلة السيراء"من أهمّ مصادر الأدب المغربيّ القديم ، وذلك بما حفظ لنا من نصوص شعريّة ونثريّة لا نجدها في غيره، ولا سيّما تلك النصوص التي أنشئت في الفترات الأولى من تاريخ المغرب، كفترة الفتح والولاة، وعهد الإمارات الرستميّة والإدريسيّة والأغلبيّة. ومن النصوص التي وردت في هذا الكتاب: تلك الرسالة الشعريّة التي وجّهها أبو الخطّار حسام بن ضرار الكلبيّ إلى الخليفة الأموي معاتبا مهدّدا، ومنها: ما تبادله الأمير إبراهيم بن الأغلب وخُريش الثائر عليه من رسائل جمعت بين النثر والشعر، ومنها: بائيّة فخريّة قالها الأمير محمد بن الأغلب عندما استعاد سلطته، ومنها: تلك الرسالة البليغة التي بعثها عامر بن نافع ، أحد زملاء منصور الطنبذيّ في ثورته المشهورة، إلى الأمير زيادة الله الأول...

. " الذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة". وهو لأبي الحسن علي بن بسّام الشنتريني. ترجم فيه مجموعة من أدباء الأندلس وغيرهم من أدباء القرن الخامس، وأورد مختارات من أدبهم. ويهمّنا من هذا الكتاب قسمه الرابع، وهو الذي خصّصه" لمن طرأ... على الجزيرة في المدّة المؤرّخة من أديب شاعر، وأوى إلى ظلّها من كاتب ماهر؛ واتّسع فيها مجاله، وحفظت في ملوكها أقواله"3 . ووصل"بهم ذكر طائفة من مشهوري أهل تلك الآفاق، ممن نجم بإفريقيّة والشام والعراق"4 . ومن الأدباء المغاربة الذين ترجمهم في هذا القسم وأورد عددا من نصوصهم: أبو عبد الله بن شَرَف، وأبو الحسن المكفوف الحصريّ، وابن القابلة السبتيّ، وأبو إسحاق الحصريّ القيروانيّ، وأبو عليّ بن رشيق. وقد أورد ابن بسّام في غير هذا القسم نصوصا مغربيّة أخرى، منها . مثلا . رسالة ابن الربيب التي يلوم فيها الأندلسّيين على تقصيرهم في تسجيل مآثر بلدهم 5 ، والتي كانت باعثا لابن حزم إلى كتابة رسالته المشهورة في بيان فضل الأندلس.

إن كتاب"الذخيرة"، وإن أُلّف في التعريف بأدباء الأندلس وأدبهم، قد حوى من أدب المغرب القديم، لاسيّما ما أُنشئ في القرن الخامس، ما يجعله واحدا من أهمّ مصادر ذلك الأدب. وقد تتضاعف تلك الأهمّيّة عندما نجده انفرد بحفظ نصوص لا نقف لها على أثر في المصادر الأخرى. وقد يكون من تلك النصوص رسالة ابن الربيب المذكورة.

. " قلائد العقيان، في محاسن الأعيان". وهو لأبي نصر الفتح بن خاقان. ترجم فيه مجموعة من مشاهير الأندلس في نهاية القرن الخامس وبداية السادس، وأورد جملة من نصوصهم الشعريّة والنثريّة. وإذا كان ابن خاقان قد اهتمّ بأعيان الأندلس على عهده، فإنّنا نجد في كتابه تراجم لبعض أدباء المغرب المعاصرين، كالفقيه الأديب أبي الحسن بن زنباع، الذي عرّف به الفتح وأورد له مجموعة من الأشعار.

إن الكتب المذكورة من مصادر الأدب المغربيّ في القرون الخمسة الأولى، موضوع هذا الملتقى. وإكمالا للصورة، نذكر كتبا أخرى تنتمي إلى هذه الطائفة، أي التي ترجمت الأدباء وأوردت مختارات من أدبهم، ولكنّها عُنيت بترجمة من عاشوا بعد القرن الخامس. ومن هذه الكتب:

. "الغصون اليانعة، في محاسن شعراء المائة السابعة". وهو لأبي الحسن علي بن سعيد الأندلسيّ. وفيه ترجم سبعة وعشرين شاعراً وسجل بعض أشعارهم. ومن هؤلاء أربعة من المغرب، منهم: الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان بن عبد الله الموحّدي.

إن كتاب"الغصون"، على قلة ما فيه من مادّة أدبيّة مغربيّة، لا يستغني عنه الباحث في الأدب المغربيّ في القرن السابع.

. " نثير الجُمان، في شعر من نظمني وإياه الزمان".وهو للأمير أبي الوليد إسماعيل بن الأحمر. وفيه ترجم طائفة من الملوك والأمراء والقضاة والفقهاء والكتّاب المغاربة والأندلسيين الذين عاصرهم، وأورد كثيرا من نصوصهم. وقد أخرجه في عدّة أبواب، يهمنا منها ما يلي: باب في شعر ملوك بني زيان وأبنائهم، وباب

في شعر ملوك بني مرين، وباب في شعر ملوك الحفصيين وأبنائهم، وباب في شعر ملوك بني العزفي وأبنائهم، وباب في شعر كتّاب بني مرين، وباب في شعر قضاة المغرب وفقهائه. وبهده التراجم والمختارات الأدبيّة يعد كتاب"نثير الجمان" من أهم مصادر الأدب المغربي في القرن الثامن الهجريّ.

. " نثير فرائد الجمان، في نظم فحول الزمان". وهو كذلك لابن الأحمر. وفيه ترجم عـددا من شعراء المشرق والمغرب والأندلس المعاصرين له. وقد قسمه إلى فصلين، أولهما: في شعراء المشرق، والآخر في شعراء المغرب، وقسم هذا الفصل إلى قسمين، الأول: في شعراء الأندلس، والآخر في شعراء بر العدوة. وهذا القسم هو الذي يهمّنا. وفيه ترجم تسعة من شعراء المغرب وأورد مختارات من إنتاجهم.ومن هؤلاء الشعراء: أحمد بن شعيب الجزنائي التازيّ، وأحمد بن يحيى بن عبد المنان الخزرجيّ المكناسيّ، ومحمد بن يوسف بن أحمد الشبوكيّ الفاسيّ، وأحمد بن محمد الدباغ الفاسي كذلك. ولهذا الكتاب أهمية في جلاء صورة الحركة الأدبيّة بالمغرب في الفترة الثانية من عصر بني مرين.

. " الأنيس المطرب، فيمن لقيته من أدباء المغرب". وهو من تأليف الأديب المشهور ابن الطيّب العَلَمي. وفيه ترجم مجموعة من أدباء المغرب الذين عاصروه. قال الشيخ عبد الله كنّون منوها بهذا الكتاب : "ترجم فيه اثني عشر أديبا من أهل عصره، بقلم فتحيّ شائق، ونفس خاقانيّ رائق. وقد ضمنه كثيرا من شعره الفائق. فجاء ديوانا أدبيا ممتعا"6 .

ومما يلاحظه الباحث في هذه المجموعة ما يلي:

. ليست هذه الكتب كلها مقصورة على المغاربة، فبعضها ترجم مشارقة أو أندلسيّين، بل أُلّف أساسا في تراجمهم.

. ليست كلّها من تأليف مغاربة، فكثير منها من تأليف "أندلسيّين أو مشارقة.

. بعضها مقصور على طائفة معينة، كالأدباء المعاصرين للمؤلّف، أو الأدباء الذين لقيهم، أو أدباء عاشوا في مدينة واحدة، أو شعراء، أو كتّاب، أو حكّام، أو غيرهم.

. اختلاف المؤلّفين في ترتيب التراجم.

. اختيار بعض المؤلّفين عناوين جميلة لكتبهم، وإن لم يتقيّد بعضهم بدلالة العنوان.

ومن الطائفة الأخرى، أي التي ترجمت صنفا أو أكثر من الأعلام من بينهم أدباء أو ذوو مشاركة في الأدب، وسجّلت بعض ما نظموا من شعر أو كتبوا من نثر . من هذه الطائفة ما يلي:

. " طبقات علماء إفريقية وتونس". وهو لأبي العرب التميميّ. ومما جاء فيه نص شعريّ لعبد الرحمن بن زياد يحنّ فيه إلي القيروان.

. " ترتيب المدارك، وتقريب المسالك، لمعرفة أعلام مذهب مالك". وهو للقاضي عياض السبتيّ. وفيه أشعار كثيرة منها بعض ما قاله الفقيه المشهور أحمد بن داود الصواف.

. " عنوان الدراية، فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية". وهو من تأليف أبي العباس الغبرينيّ. ويعتبر من أهمّ مصادر الأدب المغربيّ في القرن السابع.

. " كتاب الديباج المذهب، في معرفة أعيان علماء المذهب". ومؤلفه هو برهان اليبن بن فرحون.

. " التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا". وهو سيرة ذاتية لمؤلفه المؤرّخ عبد الرحمن بن خلدون. وقد أورد فيه مجموعة من الأشعار والرسائل والخطب. وهو أهم مصدر للوقوف على شاعرية ابن خلدون.

. " البستان، في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان". وهو لابن مريم التلمساني.

. " كتاب نيل الابتهاج، بتطريز الديباج". ومؤلفه هو أبو العباس أحمد بابا التنبكتي. وقد "أكمل به" كتاب ابن فرحون المذكور.

. " روضة الآس، العاطرة الأنفاس، في ذكر من لقيتهم من أعلام الحضرتين، مراكش وفاس". وهو لأبي العباس المقري، صاحب" النفح". ويعد من مصادر الأدب في المغرب الأقصى على عهد السعديين.

. " أزهار الرياض، في أخبار عياض". وهو ، كلك، للمقري.

. " تعريف الخلف، برجال السلف". وهو من تأليف أبي القاسم الحفناوي.

إن المتتبع لكتب التراجم لا يتردّد في عدّها مصادر بالغة الأهمّيّة للأدب المغربيّ القديم، بل انّه لينتهي إلى أن غيرها من مصادر ذلك الأدب لا يمكن أن يغني عنها.

الهوامش

1 . العماد الاصفهاني الكاتب: خريدة القصر، وجريدة العصر: قسم شعراء المغرب، تحقيق محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى، تونس: الدار التونسية للنشر . الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1973، ج 1، ص: يب.

2 . م. ن.، ص: يح.

3 . الذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ليبيا . تونس: الدار العربية للكتاب، د. ط. ، 1395 هـ. 1975م.، ق1،م1،ص.29

4 . م. ن.، ص 29 . .30

5 . ينظر: م .ن.، ص 133 . .136

6 . النبوغ المغربي، في الأدب العربي، بيروت: مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 1961، ص 315.

المصادر والمراجع:

1 . ابن الأبّار، أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي: كتاب الحلة السيراء. تحقيق حسين مؤنس. القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1963.

2 . ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الغرناطي:

ا . نثير الجمان، في شعر من نظمني وإياه الزمان.حققه ونشره محمد رضوان الداية بعنوان"أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن". بيروت: مؤسسة الرسالة،الطبعة الثانية،1407هـ . 1987م.

ب . نثير فرائد الجمان، في نظم فحول الزمان. تحقيق محمد رضوان الداية. بيروت: دار الثقافة، د.ط.، 1967.

3 . ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني: الذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق إحسان عباس. ليبيا . تونس: الدار العربية للكتاب، د.ط.، 1975.

4 . ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد: قلائد العقيان، في محاسن الأعيان. 1384هـ.

5 . ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن: التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا. بيروت: دار الكتاب اللبناني . القاهرة: دار الكتاب المصري،د.ط.،1979.

6 . ابن رشيق، أبو علي حسن القيرواني : أنموذج الزمان، في شعراء القيروان. جمعه وحققه محمد العروسي المطوي وبشير البكوش. تونس:الدار التونسية للنشر . الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط.، 1406هـ. . 1986م.

7 . ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي: الغصون اليانعة، في محاسن شعراء المائة السابعة.تحقيق إبراهيم الابياري. القاهرة: دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، د.ط.

8 . ابن عبد الكريم،محمد: المقري وكتابه نفح الطيب. بيروت: دار مكتبة الحياة،د.ط.، د. ت.

9 . ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي المدني: كتاب الديباج المذهب، في معرفة أعيان علماء المذهب. بهامشه كتاب أبي العباس أحمد بابا التنبكتي " نيل الابتهاج، بتطريز الديباج". القاهرة: مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، 1329هـ.

10 . ابن مريم، أبو عبد الله محمد الشريف المليتي التلمساني: البستان، في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان".نشر عبد الرحمن طالب. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية،د.ط.، 1986

11 . أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني: طبقات علماء إفريقية وتونس. تحقيق علي الشابّي ونعيم حسن اليافي. تونس: الدار التونسية للنشر . الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الثانية، 1985.

12 . الاصفهاني، العماد الكاتب: خريدة القصر، وجريدة العصر: قسم شعراء المغرب والأندلس. تحقيق محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى.تونس: الدار التونسية للنشر . الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1973.

13 . الحفناوي، أبو القاسم محمد: تعريف الخلف، برجال السلف. بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1405هـ . 1985م.
14 . الغبريني، أبو العباس أحمد: عنوان الدراية، فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. تحقيق رابح بونار . الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،د.ط.، د.ت.
15 . القاضي عياض، أبو الفضل بن موسى اليحصبي السبتي: ترتيب المدارك، وتقريب المسالك، لمعرفة أعلام مذهب مالك. تحقيق أحمد بكير . بيروت: دار مكتبة الحياة . طرابلس ليبيا: دار مكتبة الفكر، د.ط.، د.ت.
16 . كنون، عبد الله: النبوغ المغربي، في الأدب العربي. بيروت: مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 1961.
17 . المقري، أبو العباس أحمد التلمساني: أزهار الرياض، في أخبار عياض. تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي. الرباط: اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي ، د.ط.، 1398هـ . 1978م.